عصب السلام

للأستاذ الياس يعقوب

لا تنقذ السلام إلا أعجوبة . وإلى أن تحدث الأعجوبة نظل رهن الخوف والقلق والجزع من سوء المصير ، نصل للحرب سدًّا ونتشدق بالسلام جهراً . وكلما تراكمت الأسلحة وتنوعت، نشعر بدنو الساعة التي تدور فيها رحى الموت والخراب .

السلام أمنية الانسان : إن كان في حرب حن اليه ، ولا يفارقه إلا موجع القلب باكياً، لأن الحرب إذا ما شبت تجعل النجاة أمراً عسيراً . فريح الموت والدمار تهب من كل صوب والمآسي والويلات تعود لتتكرر . وقد عجز الانسان عن الاستفادة من اختباراته وتجاربه لتشييد عالم جديد على أسس جديدة. لقد استطاع أن يتقن فن الحياة في زمن الحرب ، وينظم معيشته وانتاجه تنظيماً دقيقاً ، لكن عبقريته أصيبت بالشلل والعقم عند ما واجهت مشاكل السلم ، وعجزت عن أن تجد الحلول الصحيحة لها فصح في السلام ما قيل في الزوج، إن الاحتفاظ بالزوج أصعب من الحصول عليه . فالدول التي أحرزت النصر في الحرب فشلت في توطيد السلم العالمي ، ولم يتح لها أن تتمتع بهدنة تزيد عن متوسط عمر الانسان، وكل فترة سلام تستمر ما دامت الدول عاجزة عن الشروع باستئناف القتال . وقبل أن تندمل الجراح التي سببتها الحرب الأخيرة نرى البشرية نفسها مسوقة لمواجهة نزاع عالمي جديد . وانما نعلق على هذه الجولة أضخم الآمال وأعذبها، لأنها تستطيع فيما عرفنا أن تستأصل الشرور وتقصي أسباب النزاع ، فتكون بمثابة مطلع فجر جديد لمفاهيم جديدة .

في هذه الفترة العصيبة من حياة العالم، التي تماثل فترة ما قبل العاصفة ، وما يسبقها من نذر ، غيوم وبروق ورعود ، تتردد أصداء مؤتمر للسلم يعقد هنا ، ونداء للسلم يصدر من هناك ، وهذا الضرب من الدعاية لا يرمي إلى توطيد أركان السلم الحقيقي ، بل إن هو إلا وسيلة خفية ماكرة تتوصل بها الدول الكبيرة قصد السيطرة على الشعوب

النصيفة، بعد أن تكون خسرت أعصابها على وقع هذا الغناء الحلو الحنون، وتعمت العقول بما بثه من روح التواكل والتخاذل والانهزام. وإذا ما نزعت بعض الأمم للسلام ونامت عن هدهدته، دون سواها، آمنت بفلسفة النعومة والسفسطة، وآثرت الاستسلام والاستجداء على الصراع، فاستشرى بها داء الضعف، وأضحت لقمة سائغة تلتهمها الشعوب التي ظلت على مبدأ العنف والقوة. إن القوي يبشر بالسلام جهراً، ويندد بالحرب والذين يدعون لها، بينما يعد العدة للحرب سراً، ويعمل لها مادياً ومعنوياً. وإنما يفعل ذلك ليبرر عدوانه، وللابقاء على ما في قبضته من أرض ذات خيرات كثيرة متنوعة. ومن الطبيعي أن يطلب المستكفي الأمن والهدوء كي ينعم ويتلذذ بما جنت أطماعه. إن الدول القوية الداعية للسلام آفة السلام واصغر والطها نية، وربيبة الظلم والعدوان والاستعمار. وليس ثمة سبيل لتوطيد السلم ما لم تقم هذه الدول الدليل الصحيح، وتأخذ على نفسها العهد الأكيد، إنها لا تفسد جو الحياة على الشعوب المجاورة التي تقل عنها قوة وتختلف عنها أنظمة. وما دام ديدن هذه الدول القوية التوسل بالايديلوجية لاخفاء المطامع والنوايا السيئة، فإن مشكلة السلام في العالم تظل قائمة دون أن تجد حلاً ممكناً.

انتا مع رغبتنا الشديدة بالسلام، وتطلعنا الغريزي بالحياة، وكرهنا للآلام والمتاعب والدمار، لم نستطع بلوغ محجة السلام. فحياة البشر كائنة بين مد الحرب وجزرها. ونحن فيما ننشىء من حضارات، ونجب من نسل، ثم تشب الحرب فتأتي على كل شيء، لا تختلف عن الأطفال الذين يلهون على شاطىء البحر: بناؤهم لهو، وهدمهم لهو. وهم ربما يشيدون أو يهدمون لا أوجاع ولا دماء ولا حسرة. انا لم نحقق السلام لأننا أخطأنا الصراط المستقيم المؤدي إليه، وأخطأنا في اختيار الحلول التي عولنا عليها لحل مشكلة السلام، ولم نغص الى الأعماق لكي نهتدي إلى علة الحروب التي هي أم لكل حرب شبت.

نحن في خلاف حول النظرة إلى السلام في العالم. وهذا الخلاف يرد إلى الفروق في الايدلوجية وما ينشأ عنها من تقدير القيم وتصور الحياة المثلى. وتتأثر النظرة كذلك بحكم الموقع الجغرافي، كأن تكون الحدود طبيعية منيعة، أو اتفاقية طليقة، أو تقع الدولة وراء بحار شاسعة تحدق بها من جميع الجهات فتحمي الاحتكاك المستمر والرقابة الدائمة والمنازعات على الحدود. فالسلام في نظر الدول التي استباحت أرضها ميداناً للحروب، وشهدت مراراً تبدل الحدود الجغرافية، لا يكون ممكناً ودائماً إلا في العودة الى الحدود التقليدية أو الطبيعية دون أن يلم أعداء الأمة للأمة بحقها، كما يقول «أطون صمانة».

أما الوضع الراهن فانه لا يصلح اتخاذه أساساً لحل مشكلة السلم، لأن كل دولة قوية منتصرة تتشبث بوضعها الراهن وتأبى التقهقر خطوة واحدة وما لم تتفق الارادات وتتماثل الأغراض فلا سبيل أبداً لاقرار السلام. فلنسأل الآن كيف تتوطد أركان السلام ؟

بعد أن خرج العالم من المجزرة العالمية الاولى خيل لأصحاب الحل والعقد أن التسلح يقود حتماً إلى الحرب. فلصيانة السلام ينبغي الاحجام الى نزع السلاح، أو تخفيفه، أو تحريم بعض أنواعه، والعمل على عرقلة المنافسة في التسليح وصنع معدات الحرب. وقد فاتهم ان الانسان عرف الحرب ومارسها وهو لا يعرف سلاحاً غير العصا. فالقضاء على تقدم السلاح الآلي الفتّاك لا يبعد شبح الحرب ويدني السلام. لأن الامبراطوريات القديمة التي قامت على الفتح والسيطرة، لم تعرف وسيلة للتنقل غير الدابة. إن العدوان لا يكمن في السلاح، قلّ أو كثر، بل في اليد التي تحرك السلاح، والفكر الذي يوجّه اليد ويديرها. وكأن الحرب الاخيرة قلبت المفاهيم وتمخضت عن مقومات جديدة للسلم. إذ بات الناس يؤمنون أن القوة دعامة السلام وسياجه ولهذا طفقت الدول تتسابق الى التسلح والسيطرة على المواقع ذات الأهمية الستراتيجية في البر والبحر كي تفاجئ ولا تفاجأ وتضرب دون أن تضرب. والى جانب هذا التهيؤ للحرب تعمد إلى عقد المحالفات وتكوين أكبر كتلة تقف في وجه الكتلة المناوئة. ولتحقيق الغايات المشتركة لا تنتج المعامل إلا ما يفيد في الحرب، وتبقى الجيوش مرابطة في الثكنات أو على التخوم. إن رجال السياسة يعتقدون باصرار ان السلم يولد في الميدان، ومن الحرب ينفجر السلام. والسلام الثابت الدائم هو ما ترسخ أسسه قبل أن تقف رحى الحرب، وما ينبثق من صميم الحرب وتطهره بحور من الدماء والدموع ولاستنباط هذا السلم ينبغي أن تكون الهزيمة التي يمنى بها العدو تامة ساحقة، في جميع الميادين، وتصاب جميع قواته بالشلل والابادة وتدمر كل مرافقه، ويتجرع كأس الذل مترعة. أما بلاده فيجب أن تمزق شر ممزق، وأرضه تقسم ويقترع عليها لتوزع، وينبغي أن يخضع للاحتلال الأجنبي كي تهدأ به العبودية وتتحطم كبرياؤه.

إني لا أدري كيف نستقطر الترياق من ذلك الأذى، ونستنبت القمح من الزؤان، ونزرع بغضاء فنحصد محبة وثقة وأمناً ولا أدري كيف نتوسل بالارهاق والاذلال ثم نرجو الخصوم أن يدرسوا تعشق السلام والتسامح والتفاهم. فما دام قلب المنتصر ينزى غلاً وبغضاً فلا عجب إذا ما رأينا الحرب تأتي إثر الحرب كالموجة إثر الموجة وهكذا تأتي كل حرب بذوراً لغيرها. ونحن لا نختلف عمن يحاول إطفاء الحريق بوساطة المواد المشتعلة.

إن المنافسة في التسلح لا تقف عند حد ولا تبلغ درجة الاكتفاء. لأن الدولة مهما

تصنع وتكدس تبق في شك من قوتهما ، وتظن أن عدوتهما تفوقها في الاسلحة كماً ونوعاً . ولما كانت الأسلحة متنوعة وميادين الحروب مختلفة فلا سبيل للمقارنة بين القوى وتعادلها . وقد لا تتركز القوة في كمية الأسلحة فقط بل تستند الى المواد المحترقة التي هي بمثابة دم لها تمدها فيها الحركة والنشاط زد إلى ذلك عوامل طبيعية من تضاريس وأنهار وبحار وأحوال اقليمية خاصة تعزز الدفاع أو تقلل من شأنه . فالخوف من اعتداء لم يقع ، والقلق من جراء تكديس المعدات ، وجو الحرب المفتعل الخانق ، ترهق الدول المدنية ، وتستنزف أموالها ، وتخلق حالة من التوتر بسبب ما يبدو من استعداد للحرب .

ويقول آخرون إن السلام لا يتوطد ما دام البشر يتكاثرون باطراد . لأن التضخم في السكان يؤدي الى التنازع على البقاء بين الأفراد والأمم . فلكي نحصل على الاستقرار المنشود ينبغي تحديد النسل . قد يكون هذا صحيحاً فيما لو كانت حاصلات العالم الغذائية تصاب دائماً بالقحط مما يسبب إقلالاً بالغلال ، وفيما لو كانت موارده المعدنية والنباتية لا تتناسب مع حاجته . ليس الاقلال علة القلق السائد ، بل إن العلة كامنة في الجهل بأساليب توزيع الخيرات على الناس توزيعاً عادلاً ، والجشع والاستغلال وقلة المساواة في مبلغ الاستفادة من خيرات الأرض ، وانتشار البطالة ، وما ينشأ عن البطالة وعدم المساواة من استياء وتأفف واختلال .

في العصر الحاضر تقوم الحياة السياسية على أساس قومي . وهذا النظام الذي تمخض عنه القرن التاسع عشر قام على أنقاض القرون الوسطى وما ساد فيها من إقطاع ، ونظام طبقات ، والحكم بموجب الحق الالهي ... فقضى على النظام الاقطاعي ، ونقلت السلطة الى الشعب ، وحلت المساواة أمام القانون مكان الامتيازات ونظام الطبقات ، وكفل حرية الفرد في المجتمع ، وصان حقوقه من عبث العابثين ، وأقام التوازن بين حقوق الأفراد وواجباتهم . والقومية تقضي بتقسيم العالم إلى جماعات مستقلة بسبب تمايزها واختلافها من وجوه كثيرة . فهي في ذلك لا تتنافى مع الطبع الذي فطر عليه الناس وهو أن يحيوا جماعات ذات مقومات وخصائص ونفسية معينة اكتسبتها بحكم تفاعلها المستمر مع البيئة في مجرى الزمان . وإن ظهور النزعة أدى إلى تفسخ أمبراطوريات وظهور دول جديدة . وقد ازدادت الكيانات القومية وترسخت قواعدها واتسعت الصفة الحقوقية بعد الحرب الكبرى الأولى بسبب طغيان الوجدان القومي وظهور مبدأ تقرير المصير . ولما كان يستحيل علينا — عملياً — أن نحدث مساواة تامة بين مختلف هذه الدول ، فلا بد أن تظل هناك دول ضعيفة . حسب مفهوم القوة في هذا العصر ، يتجلى ضعفها في قلة

مساحتها ، أو ضآلة عدد سكانهـا ، أو قلة موارد الثروة فيها ، تقوم إلى جانب دول قوية. وإن في ضعف الأولى ما يغري الثانية بالاعتداء عليها لضمن لنفسها مجالاً حيوياً ، كأن تتخذها سوقاً لسلعها أو مصدراً للمواد الخام التي تفتقر اليها صناعتها . وفي ازدياد هذه الوحدات السياسية تزداد الحواجز ، ويكثر التوتر ، وتتأزم العلاقات بين الدول دائماً .

إلى جانب هذا المظهر السياسي تقوم الحياة الاقتصادية على أساس عالمي . فالتطور الصناعي يختنق إذ وقف عند التخوم السياسية المتعارف عليها . إنه يتخطاهـا إلى سائر أنحاء الدنيـا . وان الحاجة إلى مواد خام وإلى أسواق للاستهلاك تزداد بازدياد التطور الذي يطرأ على المصانع الآلية .

إن نظاماً حيَّـاً دائم التطور لا يمكن أن يتلاءم مع نظـام جامد محدود ، ولا بد من أن يحدث اهتزاز يؤدي إلى توتر العلاقات الدولية أو انفصامها . لأن الجندي كثيراً ما يقتفي أثر التاجر ، أو أن المتمول المغامر يجر الدولة أو يزين لها الخروج خارج نطـاق الحدود السياسيـة . وفي ذلك ما يحمل الدول على الاستجابة لانهـا أكثر ما تكون بعداً عن الاكتفاء الذاتي من الوجهة الاقتصادية .

ليس المسؤول عن الاضطراب العالمي النظام السياسي — الاجتماعي الذي لم يتطور ليصبح عالميـاً كالحركة الصناعية وآثارها الاقتصادية . بل إن المسؤولية العظمى تقع على كاهل الاقتصاد الحديث الذي يتصف بالجشع المادي في مظهريه الشيوعي والرأسمالي ، وكلاهما يتطلعان الى الاستعمار والاستغلال وإن اختلفت الوسائل والاعذار . إن الاقتصاد الحديث لا يخضع لمقاييس القيم الأخلاقيـة أو لقانون خلقي إنه لا يتحسس إلا بالسوق التي تؤله الربح ، ولا تعرف مبدأ غير القيم المالية . وكلا الاقتصادين لا يرمي إلى انتاج أفضل السلع بأفضل الأسعـار ، ولا يقوم على مبدأ اجتماعي يرمي الى توفير الرفاهيـة وتأمين الحياة المثلى . وبهذه النظرة المادية الفاسدة تلجأ الدول مسرعة إلى بسط السيطرة على المجتمعات الانسانيـة الضعيفة واخضاعها لمآربهـا وامتصاص خيراتها . وان هذه الدول الاستعمارية لا تساعد على توطيد السلم وتماسك شعوب العـالم وتحابها ، فضلاً عن أنها تؤخر ركب الحياة في الأمم الضعيفة وتهـدد تقدمها وإمكاناتها بحكم طابع الاستبداد .

إن التقدم البشري وزيادة المواصلات ورقيها جملة ، عوامل أبرزت لنا صورة جديدة متعاون على حل أزمات العالم في مجتمع جديد أعضاؤه الدول القومية وكما أن الدول القوميـة منذ نشأتها حتى الآن لم تفكر بازالة الوحدات الادارية في الوجود ، ولم تأب

الاعتراف بميزات اقليمية خاصة ببعض المناطق ، وبعضها ذهب بعيداً في منح الحرية لهذه الوحدات الادارية في تصريف شؤونها الداخليـة ، فليس من السهل أو من الخير التعامي عن واقع الأمم وتميزها والتفكير بالانتقاص من سيادتها . لا بد من احترام السيادة القومية حتى تستمر في عملها على زيادة الرخاء العالمي والمساهمة في بناء الحضارات . لكن احترامنا لهذه السيادة لا يفرض علينا تحررها من قيد أو سلطة عليا خوفاً من التصادم وسحق الأمم الصغيرة الضعيفة تحت عجلة الأمم القوية المعتدية .

ان تنظيم العالم على هـذا الأساس — القائم بالشعور القومي والتوازن التام بين دوله — يمكن أن يكون عاملاً فذّاً في توطيد أركان السلام . لقد بذلت محاولتان لايجاد سلطة واحدة مسؤولة عن العالم أجمع : تمثلت المحاولة الاولى في عصبة الامم والثانية في هيئة الامم المتحدة . أما الاولى فقد فشلت في مهمتها الأساسية وهي صيانة السلم الدولي . أما الثانية فانها لا تزال قائمة وإن كانت أعمالها لا تبشر بخير عظيم، وان عوامل الضعف والموت صاحبتها منذ نشأتها .

ان إنشاء كلتا المؤسستين في أعقاب حربين عالميتين مهلكتين يعود إلى الفكرة القائلة إن المنازعات التي تقع بين الدول لا يمكن حلها على أساس قومي خوفاً من تحكم القوي بالضعيف الذي لا يقوى على مجابهته وان كان مسلوب الحق . ولهـذا يستحسن — دفعاً للأذى والغبن ، وخوفاً من امتداد الشرارة — فض كل نزاع عن طريق المفاوضات والتحكيم . وكان الدول القومية تستمد سلطتها من الشعب ، وتكون قوية بنسبة ما يمنحها الشعب من ولاء وتحمس واندفاع في سبيل صيانتها . فان كل مؤسسة عالمية لا ترتفع كلمتها فوق كل كلمة بقدر القوة العسكرية التي تعتمد عليها ، بل بمقدار ما يمنحها أعضاؤها من ولاء ويظهرون من تأييد وثقة واستعداد لحل كل نزاع بالطرق السلمية . وإذا لم ننجح في تكوين المنظمة التي تعرف سلطانها سلطة كل دولة ، فقد كتب علينا أن نحتفز دائماً ، ونحتكم إلى القوة ، ونسود القهقرى قروناً ونخضع لشرعة الغاب . إن الأمم الضعيفة تجني كثيراً من الفوائد إذا ما عملت على احياء ودعم المنظمات الدولية لانها أكثر عرضة للاخطار وأكثر ما تكون محط أنظار الدول القوية الطامعة . إنها في دخولها في محالفات كالاتفاقيات الاقليمية التي تضم عدة دول اتفقت مصالحها وأهدافها تخسر شيئاً من سيادتها وحريتها دون أن تبعد عنها شبح الحرب . بل ان مجرد انخراطها في هذه المحالفات يشير إلى مخاوفها .

إنا مع القائلين إن الحرب تهدد الحضارة ، وتزهق الارواح ، وتنشر الخراب ، وتفقر

الطبيعة لكثرة ما تستنزف من مصادر القوة في زمن قصير ما استغرق تكوينه ملايين السنين . ومع ذلك فانها تستهوي نفوس الكثيرين الذين يرون فيها من الفرص لتحقيق الأغراض أكثر مما يتوفر في زمن السلم . انها تعمل على انتقال الثروات التي تتضخم وتتكدس ، وتكسر حدة الفوارق مما توفر للناس من أعمال تتضمن الكسب والنجاح وتنشر الرخاء . وعدا ذلك فانها أمنية الشعوب المقهورة التي اغتصبت حقوقها ولم ينصفها السلم فتأمل استرداد هذه الحقوق عن طريق الحرب .

الحرب كونت لنفسها أهدافاً وحججاً ومثلاً تدافع عنها وتبشر بها . وسيظل السلم حلماً وسراباً بعيد المنازل ما لم نشده على أساس جديد ومتين . إن النظرات الاقتصادية الجزئية من رأسمالية وشيوعية لا يمكن أن تضمن لنا السلام لانها مادية في أساسها . والقضايا الاقتصادية ، رغم أهميتها ، ليست كل شيء لأن الدوافع الى الحرب قد تكون معنوية كالروح العدائي الذي يسير الشعوب والحسد والخوف ....

لابد لنا من بلوغ النفس البشرية وصقلها وتهذيبها . لقد جربنا وسائل عديدة لتنظيم السلم في العالم ، ألما يئن لنا أن نجرب المحبة كترياق لعللنا ؟ لنمط محبة من قلب محب . ان العالم يحن بشوق الى هذا الخبز أكثر مما يحن إلى الخبز الحقيقي . إن الرغيف يحفظ عليه رمقه لكنه لا يجنبه ويلات الحرب . اننا قد نبذل بسخاء ما يعتبر ضرورة جسدية لكن نفوسنا تبقى منكمشة على أنانيتها وحقدها أما النفوس الممتلئة محبة فانها تسعد بالعطاء — أياً كان نوعه — وفي بذل كل شيء لاسعاد الغير دون ما نظر إلى نتيجة العطاء . المحبة إكسير يحول الصفات الخبيثة المترسبة في أعماق النفوس إلى مناقب سامية نقية . انها مفتاح القلوب والشعاع الذي ينير ظلماتها . ومتى قدر للقلوب أن تتفتح ، قدر للناس أن يتفاهموا ويتحابوا . وبدون محبة يستحيل علينا أن نبلغ حالة من التعاون بين الامم ، وتحقيق المساواة . ما اختل التوازن الاقتصادي ، وحصل نزاع على خيرات الأرض الكثيرة ، إلا لأن النفوس أشربت بغضاً وطمعاً . انها تبغي التهام كل شيء وان سادت أحوال الغير وأصابهم ضيق وأذى . ليس السلام في تجنب الحرب والاقلال من التسلح ، بل في الوصول إلى إزالة سوء التفاهم بالود والتصافي . ومتى زال سوء التفاهم انتفت الاسباب التي تقود الى الخلاف الداعي للحرب ، اننا بحاجة إلى نظرة جديدة لمعالجة أزمات العالم ، تقدم دعائمها على المحبة الشاملة التي تستطيع وحدها ، صيانة السلام .